



MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN NAHAR
Date : 27-3-97
Photo No. : 109

تناغم فلسطيني

لا بد أحياناً من الرجوع الى الحقائق الاساسية، مهما بدت محكومة بالانفعال. الحقيقة الاساسية في الصراع العربي - الاسرائيلي المتجدد باشكال مختلفة لوامها ان الفلسطينيين قطعاً شعب عظيم. ليس لانهم شعب بطل، كما كان يقال في لغة السبعينات، وانما لانهم يثبتون درجة من الوعي الوطني جعلتهم يتجاوزون المفهوم البطولي للتاريخ الذي كانوا محكومين به باعتبارهم الشعب الضحية بامتياز.

شعب بطل؟ وكيف لا؟ لكنهم باتوا افضل من ذلك: شعب ناضج ومدرك نصوصية صيرورته، لا ينزلق الى الفتنة، مهما سعى اليها الاعداء والاصدقاء على حد سواء، ولا يهوى الانتحار الجماعي، اياً تكن درجة احتقانه. طبعاً، ليس لنفج فطرة. انه تراكم وثمره تجارب واخطاء، لكنه بات اليوم ملازماً للعمل السياسي، كيفما كان شكله، في فلسطين.

يميز اندريه مالرو في احدى رواياته بين الشجاعة التي تعزّي والشجاعة التي تنتصر. قد لا ينتصر الفلسطينيون في امد قريب، لكنهم بالتاكيد اختاروا بغلبيتهم المفهوم المفيد للشجاعة. بل قل المفهوم الوظيفي، وان يكون توزيع الادوار والوظائف اكثر عفوية مما قد يتخيل العقل المخابراتي، سواء كان عربياً ام اسرائيلياً. صحيح ان حركة "فتح"، التي تبقى العمود الفقري للفعل السياسي الفلسطيني، اكتسبت خبرة مؤكدة في التحكم بأليات لتجيش الجماهيري. الا ان ما نراه في فلسطين الآن لا يمكن فهمه بمنطق يس الازرار، او بلفة "الضوء الاخضر" و"الضوء الاحمر"، كما يطو للاسرائيليين لقول. انما حالة اكثر تعقيداً لا تعرفها ربما الا حركات التحرر الوطني حيث ظل التناعم بين "القاعدة" و"القيادة" حول الهدف البعيد اقوى من شوائب اللحظة الراهنة.

بهذا المعنى، تأتي أحداث فلسطين ببشرى سارة، وهي ان السلطة الوطنية لقيمة على الحكم الذاتي لم تتحول بعد نظاماً عربياً كلاسيكياً، وان تكن زلقت احياناً كثيرة الى نمط من الممارسات المعمودة في الربوع العربية. وهذا ما يفسر، جزئياً على الاقل، السرعة التي استعاد بها الرئيس ياسر عرفات برائز زمن المنفى، "هارباً" الى سريلانكا كما كان "يهرب" في السابق الى بنام كلما كان يريد تجنب الاخراج بين محورين عربيين متناحرين. عندما تحدث اضطرابات في بلد ما، لا يفكر رئيس هذا البلد بالسفر بعيداً انا كان يريد الهروب من شعبه. وان فعل، فانه يؤجج العداء الشعبي اكثر مما يربطه. ليس هذا ما يحصل مع ياسر عرفات في رحلته الآسيوية، ولن سمع صوتاً فلسطينياً واحداً يطالبه بالعودة حالاً. فالكل معه في "جنحة" هروب.

يبقى ان الهروب ليس سياسة. انه سلاح تكتيكي، تماماً كما هي انتفاضات المصفرة الجارية رهنماً في فلسطين. ويعرف ياسر عرفات، كما عرف قاعدته، انه سيعود بعد ان سجل موقفاً ثميناً. وانه، متى عاد وجلس رهنماً لوجه مع رئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو، المتخرق لهذا اللقاء، لانه لن يحصل بالضرورة على التراجع الاسرائيلي المطلوب. عندها، سيكون خيار واضحاً بين امرين، كلاهما استراتيجي: اما القبول بما سيعتبر في الغرب لا وسطاً لابقاء مسيرة التسوية حية، واما تحويل الانتفاضات الصغيرة الحالية تفضة كبرى.

يستحيل التنبؤ الآن بالخيار الذي سينتهي اليه الفلسطينيون. لكن يمكن من ان توقع شيء مؤكد: في كلا الحالتين، لن يكون الخيار مبنياً على الانفعال ولن ستنبعه احباط. فتلك هي في النهاية ميزة الشعب الفلسطيني: صار شعباً سيبساً. ولم يعد مجرد شعب بطل.

سمير قصير